قال لى الشاه :

كانت غلطتي أنني أسرفت فى الديموقراطية

وقفزت عشر سنوات إلى الأمام ..

إن إيران تزحف إلى الشيوعية ..

خوفًا على إبنى لم أرق مزيدًا من الدماء فى إيران

أنيس منصور

تصوير : سعد نيامين

جلست أنتظر ملك الملوك شاهنشاه أريا مهرى محمد رضا بهلوى . فلا أعرف كيف يبدو الآن . .

ولكن أعرف جيدا كيف بدا يوم رأيته لأول مرة فى مهرجان قورش العظيم فى طهران وفى بريسيوليس . . لقد صنعت فرنسا أجمل الملابس والخيام المكيفة الهواء . . وأتت الطائرات بالطعام ساخنا من مطعم مكسيم بباريس . . وفرنسا هى التى صممت أزياء الجنود . . وانجلترا هى التى أضاءت الشوارع . . والشاهنشاه هو الذى أتى بالملوك والرؤساء من كل الدنيا ليحتفلوا معه بذكرى الملك قورش مؤسس الدولة الفارسية ، والرجل المتسامح الذى حرر اليهود وأعادهم إلى القدس . . وكان الشاهنشاه – بالفعل – ملك الملوك : أناقة وفخامة وأبهة وعظمة . . وكان الشاه ذهبى الألوان ، ماسى اللمعان ، سليم الأعضاء والعينين ، مشدود الشفتين والساقين . ملكا على كل الملوك . .

ورأيته مرة أخرى خارجا من بلاده هابطا فى أسوان . . هل هى الصدفة أن يتوافق هبوطه بطائرته المسماة « الصقر » مع غروب الشمس . . ولكن الشمس تغرب وتشرق كل يوم . . فهل هو أيضا قد غرب ليشرق بعد ذلك ؟ إن قوانين الشمس مختلفة كثيرا عن قوانين الملوك . فالذين غربوا مرة ماتوا إلى الأبد ، ولكن غروب الشمس جاء ليساهم فى تعمية نفسية ضرورية . . فقد أعطى ليشرة الشاه لونا آخر غير الأصفر المميت . طبيعى أن يكون لون الشاهنشاه وزوجته الشاهبانو أصفر فرعونيا . ورأيت عينى الشاه مثل دمعتين جامدتين . . بيما كانت فى عيون بعض الحاضرين دموع ساخنة . .

إذا كانت الشمس قد أخرت غروبها بعض الوقت . فهذه هى المرة الثانية فى التاريخ . فقد أخرت الشمس غروبها قبل ذلك عندما كان هوشع اليهودى يحارب أعداءه . انتظرته الشمس حتى انتصر فى معاركه . ولعل الشمس قد تأخرت بعض الوقت لتنصر الشاه على الأسى والحزن والأسف فى مواجهة العالم الخارجى . فى آخر معاركه فى مواجهة الناس . .

وعندما أركبه الرئيس السادات سيارة مكشوفة فى أسوان ، كان يقصد أن يخفف عنه ، وأن يرون عليه . . وأن ينعش أذنيه بهتافات الجماهير الطيبة التى تكن له عظيم الامتنان . فقد وقف مع مصر فى محنها . . وليست هذه الهتافات والتصفيق لموكبه إلا تعبيرا عن ذلك . . ومن المؤكد أن الذى فعله المصريون ليس إلا شمعة متواضعة ، ولكنها صادقة ، فى ليل شديد الظلم والظلام . .

ومرة ثالثة يوم جاء مريضا من بناما . . هاربا بجلده وعظمه . خائفا ألا يموت فى هدوء . فقد كان الشاه يبحث عن مكان يموت فيه . ضاقت به الأرض . وضاقت عنه . وصدق عليه قوله تعالى « ما أغنى عنه ماله وما كسب » . وكان يهرب من الناس . . لعله يتمكن من الهرب من دمه . . فالموت فى كرياته الحمراء . . فى أعمق أعماقه . لقد جاء إلى القاهرة ميتا إلا قليلا . . أما القليل الذى بقى له فهو : ذكاء من نار ، وإرادة من حديد ، وذاكرة من كوارتس . .

ثم هذه المرة التى رأيته فيها وحده ووحدى . . هذه المرة كنت أواجه الناقدة : الشمس فى عينى . فلم أستطع أن أراه بوضوح . ولا أستطيع أن أقول له : انتقل فى الظل حتى أراك . . فالظل الذى يرفل فيه كثير كثيف . . بل إنه لم يعد يريد الشمس التى تغرب وتشرق . . بيما هو الذى غرب ولا أمل له فى أن يشرق مرة أخرى . .

ووجدته أكثر شحوبا وذبولا . . وعندما تخللت أشعة الشمس شعر رأسه . . وجدت الشعر خفيفا . . لا هو أبيض ولا هو أصفر . . إنما هو خليط من الضوء الخافت والظلال العميقة . . لقد بدأ الظلام يحتويه من رأسه إلى قدميه . .

ولكنى تذكرت حكمة أستاذنا العظيم سقراط عندما وجد أن من بين تلامذته واحدا لا يتكلم فقال له : تكلم حتى أراك . .

وسوف يتكلم الأمبراطور حتى أراه . وسوف أبتعد تماما عن الكلام فى السياسة . أى أننى سوف أحاصره بتساؤلات عن الأدب والفلسفة والتاريخ . . وبذلك أتلصص عليه . . فليس من الإنسانية ولا من الحكمة أن أتحدث إليه عن الذى حدث فى إيران . . ماذا جرى له وجرا عليه . . ثم إن الامبراطور قد روى ما حدث فى مذكراته التى صدرت بعنوان « رد على التاريخ » . ونشرته مجلة « أكتوبر » مسلسلا . .

وقد عرفت أنه يقرأ الفلسفة والأدب ويحفظ الشعر . . ولكنه مثل كل الملوك يخفى أصدق مشاعره . . لأن الاعتراف بها ضعف . ولذلك فهو يعيش تحت قناع من حديد . والقناع من صنعه هو . إن كل الملوك مثل فرسان العصور الوسطى يتعطون بأقنعة جافة خانقة : ولكنها الوسيلة الوحيدة لحمايتهم من الناس . .

ومهما كانت الدرع قاسية ثقيلة باردة جافة ، فهى أفضل لديهم من السير على طبيعتهم عراة حفاة — هدفا لسهم من خشب يسدده طفل فيرديه قتيلا !

وأذكر أننى عندما كنت فى طهران فى « قاعة العرش الشاهنشاهى » تلفت حولى يمينا وشمالا . وفوق رحمت قدمى . فلما لم أجد أحدا تسللت إلى « عرش الطاووس » وجلست عليه . . واحتفظت بهذه الصورة التى لا معنى لها . . لقد أردت فقط أن أسرق لحظة من المملكة الأبدية . . ووجدت أن كرسى العرش جاف خشن . . إنه من الذهب والأحجار الكريمة . . ولكن الأحجار الكريمة مثل الأحجار الثمينة ، باردة . . تماما كما يجلس الإنسان على الرصيف .

طبعا ليس هذا رأى الذين يجلسون على العرش ويحولون دونه ، وليس رأى الواقفين الراكعين الساجدين أمامه ، صادقين ومنافقين . . إنما هو رأى الثعلب الذى تطاول إلى شجرة العنب ، فلما لم ينل شيئا قال : إن العنب مر . .

فالذى أحسسته من برودة الأحجار الكريمة ، ليس إلا مرارة العنب ! . .

وأفقت من ذهولى الذى لا أعرف كم كان طوله . ووجدت يدا ممدودة قدمت يدى . وجلس جلالة الشاه فجلست . وأفقت . وكان مستعدا . وتراجع إلى الوراء فى مقعده كعادته . ومد ساقيه إلى الأمام كعادته . وتطلع بعينين سادرتين سارحتين وراء منظارة إلى ما ورائى . . إلى ما وراء الوراء . . وتقدمت أنا إلى ما يقربنى منه بأسلق . . لا أريد أن أتجاوز جلده إلى لحمه . . فقلت : جلالة الامبراطور أنت تبدو فى صحة جيدة .

فزم شفتيه وهز رأسه فقد سمع هذه البداية التقليدية كثيرا . أو لعله نسى هذا الشاق الاجتماعى منذ سنة ونصف وتركه هو وكل شىء آخر وراءه فى بلاده . وقال : أنت تعرف أنها كانت عملية جراحية كبيرة وخطيرة . . ولكن الآن أنا أحسن بكثير . . وزنى الآن ٦٣ كيلو جراما ، والطبيب يرى أن من الضرورى أن يكون وزنى سبعين كيلو جراما . وإن كان من الأفضل أن يصبح وزنى اثنين وسبعين . .

قلت : علمت أن جلالتك تتريض يوميا . .

قال : أمشى ساعة كل يوم . وفى الصيف أرجو أن أمارس رياضة السباحة . فهى أحسن علاج . .

قلت : هل هى العلاج الوحيد ؟ . .

أجاب : لا . . بل أنا فى حاجة إلى علاج مستمر . . والآن أجرب العلاج الكيميائى . . فالأطباء يحقنونى بمجموعة من المواد الكيماوية فى الوريد . . إنها حقنة كبيرة تستغرق نصف ساعة . . شاقة مرهقة . . والغرض من هذا العلاج الكيميائى هو التحكم فى خلايا الدم المعرضة لأن تصاب بالسرطان . .

ومن القلق المهذب الذى ظهر على وجهه وحركاته ، أيقنت أن مثل هذه التساؤلات عن صحته ، ليست هى التى ينتظرها . . وشجعنى هذا القبيل على أن اقترب منه أكثر . فقلت : جلالتك تتابع أخبار العالم شرقا وغربا . .

فاعتدل قليلا فى جلسته . . وأخذ وضع الاستعداد وقال : طبيعى . هذه عادة عمرها خمسون عاما . .

قلت : وتتابع الكتب التى صدرت عن الثورة عليك فى إيران . .

أجاب : بعض هذه الكتب أقرأه . .

فسألته : كتاب فريدون هويدا مثلا ؟ . .

أجاب : إنه أخو رئيس الوزراء . . إنه واحد من المؤيدين لنا . . ولكن حاجته إلى المال كانت شديدة . .

ولقد رويت القصة كاملة فى مذكراتى التى عنوانها « رد على التاريخ » . وإن كنت سوف أضيف فصلا إلى الطبعة الإنجليزية . وسوف أبعث إليك بهذا الفصل لتنشره فى مجلة « أكتوبر » . .

ومذكراتى توقفت عند سبتمبر سنة ١٩٧٨ . ولذلك كان لابد أن أضيف إليها أشياء أخرى كثيرة . فقد تابعت الأحداث . وشاهدت التليفزيون . ورأيت مناقشات الأمم المتحدة . وتلقيت معلومات كثيرة . فرأيت وفهمت وحللت واستنتجت لماذا حدث كل ذلك فى بلادى . .

قلت : ألم يكن ذلك كله واضحا فى مذكرات جلالتك ؟ . .

قال : إنها تحتاج إلى توضيحات وإلى النظر من زوايا مختلفة . وإلى مناقشة بعض الاجتهادات والأكاذيب التى أدخلت الحوادث فى إطارات وهمية . . ولقد أشرت فى مذكراتى إلى أن الذى يحدث فى إيران الآن قد حدث سنة ١٩٠٧ ، عندما كان الانجليز والروس قد اقتسموا البلاد ، وبعد ذلك جاء الإنجليز والأمريكان وقدموا لستالين ومولوتوف هدية أخرى ، هى أن يكون لولايات أذربيجان وكردستان وخوزستان التركية والكردية ، حكم ذاتى . .

ووقفنا ضد رغبة ستالين . وضد رغبات عدد كبير من مستشاريّ . . ونجحنا ، وكانت هذه هى أول مرة نقف فيها ضد السوفيت . ومشينا فى ذلك وراء موقف تيتو سنة ١٩٤٨ . .

هذه هى السياسة القديمة : تمزيق إيران وإعطاء أجزاء منها الحكم الذاتى . فإذا حدث ذلك لولاية واحدة فإن الولايات الأخرى سوف تتبعها بسرعة ، وتنتهى الدولة وتتمزق القومية الإيرانية . .

أو لعلهم أرادوا أن تكون هناك منطقة عازلة بين الهند وروسيا . وهذه أيضا سياسة بريطانية قديمة . فتكون هذه « الأرض الحرام » هي إيران . .

وتلك السياسة لن تنفع هذه المرة . لأن الأوضاع القائمة في إيران ، إذا بقيت على ما هي عليه من فوضى واخلال . فلن يفلح الوطنيون المخلصون لنا في القيام بعمل مضاد . لأن إيران سوف تصبح دولة شيوعية بسرعة مذهلة . .

والذي نراه في إيران الآن ليس نظاما . ففي إيران الآن بطالة تبلغ أربعة ملايين نسمة . وقد أكدت الحكومة – إن كانت هناك حكومة – كل الاحتياطي الذي تركناه وراءنا . . وهم الآن يحصلون على الأموال بأي شكل . . ويرغمون الناس على دفع الضرائب . . وفي ايران أناس كثيرون غير قادرين على دفع الضرائب . . ولذلك فالحكومة اقترضت من البنك المركزي عشرة آلاف مليون دولار . . وليس هناك إنتاج . . والتضخم بلغ ٣٠٠٪ منذ تركنا البلاد . هذا هو الوضع في إيران . .

قلت : ما الذي يجعل جلالتك تعتقد أن إيران الشيعية سوف تتجه بهذه السرعة إلى الشيوعية ؟ . .

قال : لأن إيران لا تجد ما تأكله . . ولا يستطيع أحد أن يطعمها أو يسقيها . . فلا مفر من الشيوعية . . لأن إيران بعيدة عن الدين . وليس الدين هو هذه الجرائم اليومية التي ترتكب ، والدماء التي تراق ، والسجون التي يتكدس فيها الأبرياء . . ثم إنهم يقولون لشعبنا دائما : إنكم شعب من المسئولين الشحاذين التعساء . . بدلا من أن يقولوا لهم : بل في استطاعتكم أن تكونوا شعبا من الدرجة الأولى . .

ومعنى ذلك أن الناس يجب أن ينتظروا طول الوقت لكي يلقوا إليهم بفتات الطعام حتى لا يموتوا جوعا . . وفي ذلك قتل للعامل وإهدار للموهبة . .

كما أن رجال الدين يبيعون كل شيء . وإن كانوا يخصون الذين يحاربون دفاعا عنهم ببعض المال والطعام والامتيازات . لكنهم في إيران قد قتلوا الطبقة الأولى . وقد يحدث ذلك في أي بلد ، وفي أية ثورة . . ولكنهم الآن قد انجهوا إلى الطبقة الثانية فقضوا عليها . وهم الآن قد استعدوا للقضاء على الطبقة الثالثة . .

ومعنى ذلك أن تصبح إيران شعبا من الطبقة الرابعة أو الخامسة . . من البؤساء واليائسين والمتضورين جوعا فوق أرض غنية . .

مثلا : إن المفاعلات النووية أغلقوها . . والجسور أسقطوها . . ومحطات توليد الكهرباء عطلوها . . وكنت أنتج يوميا خمسة ملايين برميل . . واليوم ينتجون مليونا واحدا . . فلا دخل ولا ضرائب . .

ولذلك أعتقد أن الشعب الإيراني يزحف الآن على بطنه نحو النظام الشيوعي . . فسوف يجد في الشيوعية نظاما وطعاما . وسوف يعمل الناس ويكون لهم أجر . وسوف تتقدم البلاد ماديا على الأقل . والناس يصبحون عبيدا . ولكنهم مثل نزلاء السجون ، سوف يجدون ما يأكلون . !

قلت : جلالة الامبراطور ، إنك لم توضح لنا في مذكراتك إلى أي حد كان الأمريكان مسئولين عما حدث . .

فقال متفاديا الإجابة : سوف أوضح ذلك في الفصل الذي سأبعث به إليك لتنشره في مجلة « أكتوبر » العظيمة الاحترام . .

قلت : أشكر جلالتك على هذا التقدير . . ولكن يا صاحب الجلالة من الذي يساعد الخميني أو من الذي ساعده وسانده ؟ . .

قال : يساعده كل من يستفيد من هذه الفوضى . .

قلت : إلى وقت قريب جدا كان الاعتقاد أو الاجتهاد السائد هو أن الغرب أراد مساعدة هذا النظام – وإن لم يكن نظاما . .

أجاب : عن طريق بازرجان الذي هو عميل قديم لبريطانيا وأمريكا . . أو عميل لبريطانيا أكثر . .

قلت : وحاولوا مساعدة الرئيس بني صدر . .

فسأل : من ؟ . .

قلت : الغرب . .

قال . ولكن ليس الأمريكان ! فالغرب كان على استعداد لأن يعطي نوعا من الحكم الذاتي لكردستان . وكما قلت لك منذ قليل : إنك إذا أعطيت الحكم الذاتي لإحدى الولايات نعمتها الولايات الأخرى . .

وقد سمعت من الراديو أن لجنة دولية سوف تذهب إلى إيران لترى ماذا يمكن عمله بالنسبة للرهائن . . وسوف تكون هناك انتخابات جزئية . ولا أعتقد أن السيد بني صدر سوف تكون له أغلبية . . إنما سوف تكون الأغلبية للأحزاب الدينية . ورغم ذلك فالمستقبل ليس واضحا . .

قلت له : إن الخميني هو أساس هذا النظام يا صاحب الجلالة . .

قال بسرعة خاطفة غاضبة : الخميني ؟ ! إنه شرير . . إنه رجل متخلف . . إنه يعيش في عصر مضى وانقضى . .

قلت : هل قابلته جلالتك ؟ . .

قال : لم أره . لقد كان مجهولا تماما قبل ١٧ عاما . وكان مضحكا حقا عندما راح يهاجم الثورة البيضاء التي أعلناها . . ولذلك طردناه إلى الخارج وبدلا من أن نضعه في السجن . تركناه يخرج حيا . .

قلت : هل كان من تدبير جلالتك أن يذهب إلى فرنسا بالذات ؟ . .

أجاب : لا . . ليس كذلك . لقد ذهب إلى تركيا والعراق . . وبقي في العراق ١٤ عاما . ولم يوقف نشاطه . وحكومتنا في ذلك الوقت سألت العراق كيف تتركون مثل هذا الرجل يمارس العداء لإيران ويجاهر به . وأخرجه العراق . وحاول أن يذهب إلى الكويت ، فرفض الكويت دخوله . فسافر إلى سوريا ومن سوريا استقر في ضاحية بالقرب من باريس . .

قلت : ولكن بعض المخلين السياسيين أكدوا أن ذهابه إلى باريس كان تلبية لرغبة جلالتك . .

أجاب : لا . . ليس صحيحا . إنما الفرنسيون سألونا ما الذي نفعله بهذا الرجل . ولم نجد ما نقوله لهم . . وسواء بقي في باريس أو هيوزج فالمعنى واحد .

قلت : هناك اجتهادات بأن الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان هو الذي نقل إلى رؤساء الدول التي اجتمعت في جزيرة جوادیلوب تفاصيل ما جرى في إيران ، ثم إنه هو الذي طلب إلى الرئيس كارتر أن يتصل بالخميني . .

أجاب : صحت هذا . ولكني لا أعرف التفاصيل بالضبط . وإن كنت أستطيع أن أتكهن ببعضها . .

قلت : من متابعة جلالتك للأخبار ومن معرفتك الكاملة لتاريخ العلاقات الإيرانية العراقية ، هل تتوقع حربا بين الدولتين ؟

أجاب : لا أتوقع حربا . . وإن كان من الممكن أن تقع مناوشات واشتباكات طويلة . . أما الحرب فلا . .

قلت : بعض العرب أفزعهم أن تترك بلادك . . ورغم ذلك لم تحاول هذه الدول العربية أن تتخذ موقفا واضحا معك أو ضدك . أو مع الإمام الخميني أو ضده . .

أجاب : بعض العرب سعداء لأنني تركت البلاد . .

قلت : وبعضهم خائفون . لأن الإمام الخميني لم يعطهم الأمان الذي افتقدوه بوجودكم في إيران . .

قال في غضب عابر : لا أعرف لماذا يخاف العرب . لماذا كانوا خائفين . إذا كان الإسلام هو الذي يعطي الأمان ، فالخميني لا يمثل الإسلام . وإذا كان المذهب الشيعي هو الذي يخيف ، فليس من المذهب الشيعي : هذا القتل والسجن والتشريد والتجريح والتخريب . . لعلهم كانوا خائفين داخليا .

قلت : ربما كان سبب الخوف هو من الشيعة الموجودين في البلاد العربية . .

قال : ولكن ليس من المذهب الشيعي إهدار كرامة الإنسان وإراقة دماء الأبرياء . . فالمذهب الشيعي بريء من كل ذلك . . إنني أرقب الأحداث وأتابعها من مصر ، وأزداد حزنا على ما أصاب شعبي وبلادي . .

قلت : جلالة الشاه كيف قررت المجيء إلى مصر ؟ . .

قال : عندما جئت إلى أسوان دعاني الرئيس السادات والسيدة حرمه إلى البقاء في مصر ، وكان الرئيس السادات رقيقا ولطيفا وكريما . كان أكثر من أخ . لأنه من الممكن أن يكون لك أخ شرير . . والرئيس السادات أخ كريم موثوق به . لقد طلب إليّ بإلحاح شديد أن أبقى في مصر . وتذكرنا هذه الدعوة الصادقة دائما . وكنا على اتصال دائم بالرئيس السادات والسيدة الكريمة زوجته . بل إن الرئيس السادات قد ذهب إلى أبعد وأعمق من ذلك عندما جاءني الدعوة رسميا عن طريق مجلس الشعب . ولن ننسى له هذا الكرم وهذه الشجاعة مادمت حيا ، بل إن التاريخ لن ينسى له ذلك . فقد اتخذ الرئيس السادات قرارات عظيمة كثيرة جدا .

وفي بداية وفي مواجهة ما حدث لنا هناك تذكرنا هذه الدعوة الأخوية للرئيس السادات والسيدة الكريمة زوجته . وتذكرنا الترحيب الصادق العميق الذي قابلنا به . ولم يكن الاختيار صعبا . وقررنا أن نجيء إلى مصر . ونجحنا في الوصول إليها . وهو أفضل قرار اتخذناه منذ تركنا بلادنا . .

قلت : ولكن جلالتك ذهبت قبل ذلك إلى المغرب . وكان من المنتظر أن تبقى هناك وقتا أطول ، أرتبق هناك دائما ؟ . .

قال : لقد عشنا هناك بضعة شهور . . ولم نشأ أن نثقل على جلالة الملك الحسن الثاني . ولذلك غادرنا بلاده إلى جزر بهاماس ثم إلى المكسيك . .

وأرسلت أولادي إلى الولايات المتحدة . فأكملوا الدراسة في سويسرا الماضي . وكنت مريضا معظم الوقت . ثم كان ما أصاب طهران . وذهبت إلى مستشفى نيويورك وبعد ٤٨ ساعة قررنا إجراء العملية . وفي ذلك الوقت احتجزوا الرهائن الأمريكان بسفارتهم في طهران . لقد كان ذلك إهمالا شديدا من الحكومة . لقد أمسكوا بالرهائن . وصدق الأمريكان حكومة العميل بازرجان عندما أخبرهم بأنه سوف يعنى عناية تامة بالسفارة الأمريكية ومن فيها . . ولم تكن في إيران حكومة . بل إن هذه « الحكومة » لم تستطع أن تحمي البيوت المجاورة لمكتب رئيس الوزراء . . ولذلك أخذوا الرهائن وحدث ما حدث . . وطبيعي أن يقع كل ذلك ما دامت لا حكومة ولا نظام هناك ! . .

إنهم في إيران يطلبون إلى الطبيب أن يكتفي بدراسة بضعة شهور ليكون بعد ذلك قادرا على علاج المرضى . .

فإلى جانب غياب القانون ، اختفاء العلم أيضا . . وهذا ما أعلنه الخميني . . إنه قال : ما حاجتنا إلى أطباء أجانب . . إننا قادرون على إنتاج أكبر عدد من الأطباء . . إنه رجل مجنون . . إنه رجل أعمى ! . .

قلت : إنه عكس ما قررته جلالتك . . لقد قررت أن تقوم « بتغريب » إيران — أي جعلها دولة غربية متطورة . . وكانت نزعة التغريب أو التطوير أو التحديث سريعة وعنيفة . . ويقال إن هذه الفلسفة هي التي أدت إلى الثورة على جلالتك . . فقد أدت هذه الثورة إلى توسيع الهوة بين الطبقات في إيران ؟

قال متراجعا في مقعده ثم معتدلا بعد ذلك ، كأنه أعاد تركيب جسمه أو كأنه وضع رأسه على كتفيه بعناية شديدة ليرد على هذه القضية الفاصلة القاتلة أيضا : في السنوات الأخيرة ذهبت في « التغريب » والتطوير إلى أبعد مدى وبأسرع ما يمكن . . لقد كان تغييرا كبيرا كثيرا . . كان تغييرا سريعا وكنت بالغ الاهتمام بذلك . . وفي نفس الوقت دون إراقة الدماء . . فقد كان المهم عندي أن أحشد الناس وأن أدفعهم إلى الأمام بمنتهى السرعة والقوة . . وأن أرغمهم على الحضارة إرغاما . .

والآن عندما أنظر إلى الوراء فإنني أرى الأخطاء أكثر وضوحا . .

قلت : ما هي أخطاء جلالتك ؟ وما الذي أصلحه الخميني منها ؟ . .

قال : أخطائي . . لابد أن تكون هي حرصي على الإسراف في الديمقراطية . .

قلت : كيف ؟ . .

قال : مثلا : إطلاق سراح المعتقلين السياسيين والإرهابيين . . وإعطاء السلطات للحكومة القائمة في ذلك الوقت . . ثم أكبر غلطة هي : الانسحاب . . الانسحاب باستمرار . . ومزيد من الانسحاب أمام ضغط الشعب والغيابات والجماعات . . وكانت الاختيارات أمامي بعد ذلك صعبة جدا . . ولذلك قررت أن آخذ إجازة . . وكان ذلك هو المخرج من المأزق . فمن الناحية الدستورية كان كل شيء في

مكانه ومرفعه وحجمه ووزنه . . هناك مجلس للبلاط . . وحكومة شرعية وافق عليها البرلمان . . والجيش الذي أقسم على الولاء لي . . ولكن عندما خرجت انهار الجيش .

. . . . . .

(أما هذه النقط فهي آهات طويلة متتابعة . وبعدها أحنى رأسه . . لأبتلع أنا أيضا ريقي وأنتظر) .

قلت : جلالتك آسف على ما حدث ؟ . .

أجاب : آسف تماما على ما أصاب بلادي . . لقد أعددت لورثة لبلادي من ١٩ نقطة . . ليس من بين هذه النقاط واحدة في تاريخ أي بلد . .

لا توجد نقطة واحدة قد سبقني إليها أحد . . .

كنت أتوقع أن تصبح إيران في سنة ١٩٨٣ دولة قوية . . وعندما تركنا بلادنا كان متوسط دخل الفرد ٢٥٢٠ دولارا . . وكان من الممكن أن يبلغ اليوم أربعة آلاف دولار . .

وفي سنة ٢٠٠٠ كانت إيران ستصبح مثل أية دولة أوروبية حديثة متطورة . . بل عسكريا أيضا . . فإن إيران جيش من أعظم الجيوش في العالم ومن أكثرها تطورا . .

قلت : جلالة الشاه ولماذا كل هذه القوة العسكرية وكل هذه الأسلحة المتطورة الفادحة التكاليف ؟ .

أجاب : وما الخطأ في أن يكون لدولة متماسكة عريقة جيش قوي . . فقد كان في الإمكان عن طريق هذا الجيش إنقاذ الشرق الأوسط . .

أنا لبست في أطماع خارجية . .

وأستطيع أن أقول لو كنت الآن في إيران ، ما حدث شيء مما جرى في أفغانستان . .

قلت : وهل كان في استطاعة جلالتك أن توقف الزحف السوفيتي على أفغانستان ؟ . .

أجاب : كان على الروس أن يفكروا مرتين قبل أن يُقْدِموا على هذا الغزو . . وحتى إذا لم يفكروا ، فإن شيئا مما أصاب بالوشنطن ما كان من الممكن أن يحدث . ولا أن تتقدم القوات السوفيتية إلى المحيط الهندي أو بحر العرب أو الخليج الفارسي . . هذا هو الجواب على ضرورة أن تكون عندنا قوة عسكرية وجيش متطور . .

قلت : من ترى جلالتك الضحية القادمة للسوفيت ؟ . .

أجاب : كما قلت لك من قبل : إذا لم يفعل الوطنيون شيئا فى داخل إيران ، فسوف يكون الدور على إيران نفسها . وسوف يجىء ذلك من الداخل . . أى سوف تكون دعوة روسيا إلى احتلال ايران من داخل الفئات الإيرانية . .

وتساءلت : ولن يفعل الأمريكان ودول الغرب شيئا ؟ . .

أجاب : الغرب ؟ وهل فعل الغرب شيئا أمام تدخل السوفيت فى تشيكوسلوفاكيا وفى المجر . .

ان القاعدة السوفيتية فى التدخل عادة هى : أنهم يدخلون أولا ويطلقون الدعوة بعد ذلك ! . .

فلا مفر من الشيوعية فى إيران . لأنه إما أن يقوم الوطنيون بثورة وإما أن تلقى الدولة بنفسها عند أقدام الشيوعيين أو فى أحضانهم . . وإن كان لا يهم مطلقا أن تلقى إيران نفسها عند القدمين أو بين الذراعين . . إن الذى يهم هو أن إيران ستضطر إلى الإلقاء بنفسها إلى الهاوية الشيوعية . .

أما الدول الغربية فهى مشغولة بمصالحها فقط . . مشغولة بالإجازة الصيفية أين . . والإجازة الشتوية أين . . ومشاكل الإسكان . . والاستهلاك . . وتخفيض التسليح . . وبيع السلاح لدول أخرى . . ثم الوفاق بين أمريكا وروسيا ؟ . .

وفى استطاعتك أن تضع هذه المعانى على النحو الذى تريد . . هذا هو العالم الغربى . .

إنهم يسلمون بالأمر الواقع وينتظرون ما سوف يحدث بعد ذلك . .

تساءلت : ولكن . . جلالة الشاه لم يتضح من هذا الحديث أو من مذكراتك ما هو الدور العربى أو رد الفعل العربى على ما حدث فى إيران . .

أجاب : الرد الصحيح هو الخوف . .

تساءلت : من ماذا ؟ . .

قال : الله أعلم من ماذا ! ربما الخوف ظاهرة عربية مرضية . . ربما الخوف بسبب الأوضاع المشتعلة فى داخل البلاد العربية . .

قلت : بعض إمارات الخليج كانت شديدة الخوف منك ، وبعضها الآن شديد الخوف من الخمينى . . فهم خائفون من إيران دائما ! . .

قال : لم يكونوا على حق فى خوفهم . فقد كنت أحسن أصدقائهم . وإذا كنت تقصد أنهم ازدادوا خوفا بعد استرداد إيران للجزر الثلاث فى الخليج الفارسى ، فأنا لم أستول عليها . إنما أنا استعدتها من البريطانيين الذين سرقوها من إيران . .

قلت : جلالة الشاه نقول إن فى استطاعة الوطنيين القيام بشىء ضد الخمينى ، فإلى أى حد أنت على يقين من ذلك ؟ .

أجاب : ليست لدى معلومات كافية مع الأسف . فالموقف صعب جدا . معقد جدا وذلك لنقص وسائل الاتصال . فالوطنيون المناوئون للخمينى أغلبية ساحقة . ولكنهم ليسوا منظمين . كما أن الأسلحة الآن فى أيدى الغوغاء .

قلت : جلالة الشاه هل من الممكن أن نفسر ما حدث فى إيران تفسيرا نفسيا . بمعنى أن نعتمد على التفسير النفسى الشخصى للتاريخ . . فنقول إن الإمام الخمينى قد دفعه إلى الثورة عليك ، أن أباك قتل أباه وأنك قتلت ابنه . . هل هذا سبب كاف لكل ما حدث ؟ ألا يحدث أن تقوم ثورة أو حرب من أجل وفاة شخص واحد . . كما حدث فى حرب سنة ١٩١٤ عندما اغتيل أمير نمساوى أو كما حدث فى حرب طروادة من أجل الفتاة هيلين ؟

ولم يسترح الشاه لهذا السؤال أو لهذا التبسيط الشديد لوقائع التاريخ أو الثورات فى العالم . . مع أن التاريخ قطار تدفعه إلى الأمام قاطرات ضخمة . هذه

القاطرات هى الأفراد الممتازون . . أو أصحاب الغضب النبيل . . أو الثأر الجميل . .

فكان جوابه : لم يحدث لأبيه أى شىء . . لقد مات أبوه موتا عاديا ، ثم إن أباه هذا ليس إيرانيا . كما انى لم أقتل ابنه أيضا . إنما الخمينى رجل شرير بطبعه ، ولم يكن فى حاجة إلى وفاة أبيه أو ابنه ليشعل الدماء ، أو ليهدم قبر والدى ليدفن حياته .

قلت : ولكن بماذا تفسر جلالتك جاذبية الرجل والتفاف الملايين حوله ؟ .

أجاب : الدم . إنه الدم !

قلت : هل تريد جلالتك أن تقول إن كل هذه الملايين متعطشون للدم ؟ . .

أجاب : نعم . مادامو قد التفوا حوله ومشوا وراءه وارتضوا الهوان والعذاب على يديه . ووقفوا يتفرجون على خراب البلاد ، دون أن يثوروا . . فلابد أن هذا يرضيهم . . فهو بذلك قد حقق لدى الجماهير رغبة دموية شريرة . .

إن الرجل قد أصيب بجنون . . إنه ينكر كل تاريخ إيران الذى عمره ٢٥٠٠ سنة . . ويرى أن التاريخ قد بدأ به هو . . وأن كل ما حدث قبله لا وزن له ، ويجب ألا يكون له وجود . ألا ترى أن هذا — رغم المأساة — شىء مضحك ؟ ! . .

قلت : جلالة الشاه لاحظت أنك تقول « الخليج الفارسى » ونحن نقول « الخليج العربى » أو الخليج فقط . .

قال : إن هذه حقيقة تاريخية . . فى كل خرائط العالم تجد الخليج الفارسى ، حتى الرئيس جمال عبد الناصر كان يقول عنه الخليج الفارسى . إما الخليج العربى فاختراع عربى . . ولقد قرأت « الخليج العربى » لأول مرة مكتوبا فى صحيفة التايمس البريطانية فى الخمسينات . . ربما فى ١٩٥٦ أو فى ١٩٥٧ . . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل العرب يتمسكون بهذه التسمية . . وأنت تعرف أن بعض البلاد العربية تعيش على الشعارات . .

وقد اتخذوا من هذه التسمية شعارا . فما فائدة تغيير الأسماء التاريخية أو الجغرافية . . فمنذ الخيط الفلانى لماذا سمى

كذلك . . ولماذا لم يكن اسمه المحيط الأفريقي . . كما أن في استطاعتكم أن تسموا البحر الأحمر بالبحر العربي . .

ثم لماذا لا يسمونه بالخليج الإسلامي . . فنحن مسلمون ولسنا جميعا عربا . . والأغلبية الإسلامية ليست عربية .

قلت : جلالة الشاه هل ترى لما حدث في إيران أي صدى في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي ؟ . .

أجاب : نعم . . سوف يقول السوفيت للمسلمين عندهم : هل تريدون أن تصبحوا مثل إيران ؟ هل هذا هو الإسلام ؟ هل تريدون الفوضى وسفك الدماء والجوع والدمار والبطالة والتخلف . .

قلت : إذن فهل كان من أهدافك يا جلالة الشاه أن تقفز بإيران بعيدا عن الجمهوريات الإسلامية السوفيتية ، فتقطع الصلة بينها وبين إيران ، وذلك بتطوير إيران ودفعها إلى الغرب بدلا من التصاقها بالشرق ؟ . .

أجاب : نعم . ولكن ليس هذا فقط . فعندنا في إيران كل العناصر التي تجعلنا دولة من الدرجة الأولى . . عندنا البترول والأرض والمعادن . . وعندنا عمليات جديدة لتحويل الحديد إلى صلب عن طريق الغاز الطبيعي . . وعندنا كوادر مدربة على أحدث ما وصل إليه العلم الحديث . . وعندنا كل المؤهلات التي تجعل من إيران دولة من الدرجة الأولى . .

فلم يكن « التطوير السريع الخاطف » هو السبب في كل ما حدث . . إنما كان السبب أيضا : إدخال قرارات اجتماعية واسعة شاملة . . ففي النقاط التسع عشرة لثورتي تجد العمال الزراعيين يعملون لحساب أنفسهم . ولقد أدخلنا المساهمة مع العمال في الأرباح . . وهم يملكون ٤٩٪ من المصانع . .

ولدينا من الأفكار والنظريات ما يصلح لبلادنا . . وليس من الممكن طبعا أن نختار الديمقراطية السويسرية أو السويدية . دون مراعاة للتقاليد المختلفة أو الظروف المغايرة . . وأنا أعتقد أن الناس المعقدين هم الذين ينظرون عن الغرب دون تفكير .

قلت : جلالة الشاه لم تشأ أن تجيب عن سؤال سابق إن كان أحد قد ساعد الخميني ؟ . .

أجاب : لا أعرف . ولكن كل ما أستطيع أن أقوله هو أن هناك « إرادة ما » شاءت أن أخرج من إيران . . أرادوا أن أخرج لأني كنت مستقلا في تفكيري وتدبيري ورسم مستقبل بلادي .

لعلي كنت مستقلا أكثر مما يجب ؟ !

قلت : ولكن الذين ساندوا الخميني أو ساعدوا على إخراج جلالتك ، لم يستفيدوا شيئا ! !

قال : هذا هو التاريخ دائما . .

فلو كان الناس يتعلمون من التاريخ ما وقعت هذه الأخطاء . . أو كانت هذه الحسابات الخاطئة . . فالتاريخ علمنا ألا نتعلم منه شيئا ! !

قلت : هل حدث كل شيء فجأة ؟ . .

أجاب : لم يكن فجأة . . لقد استعدوا لذلك . قبل سنتين على الأقل .

قلت : دون أن يدري أحد في إيران كلها بذلك ؟

أجاب : ليس بالضبط ! . .

قلت : هل المخابرات الإيرانية والوطنيون والرحيون وغيرهم لم يعرفوا شيئا عن الإعداد للانقلاب عليك ؟ . .

أجاب : ليس بالضبط : ليس بالضبط ! ولكني أنا الذي قررت أن أخرج من أجل ديمقراطية البلاد . ومن أجل سلامتها . وما دام هذا هو الرأي العام فلابد أن أخرج أمام ضغوط كثيرة : إعطاء حريات كثيرة وتراجع مستمر أمام هذه الضغوط . . وإذا بدأ كل شيء يتحرك ضدي ، فلن يتوقف شيء بعد ذلك . .

قلت : فماذا كانت نتيجة كل هذه الديمقراطية المتعجلة ؟ . .

أجاب : كانت انتحارية . فقد كان من الأفضل والأسلم أن يحدث كل ذلك في عشر سنوات مراعاة لظروفنا الجغرافية وتقاليدنا . .

إنها خطة لعلها تنفع الآخرين فلا يقعوا فيها . . إني الآن أرى كل شيء بوضوح . . أرى كل أخطائي . .

ومن بين أخطائي المميتة : أنني صدقت الغرب كالأعمى . . وأنني أحدثت قطيعة صداقة الغرب شيئا مسلما به . . لقد كنت أعمى . . وبعد أن استسلمت هذه الصداقة ، ذهبت بسرعة إلى ما تمنيته لبلادي . . أعطيت بلادي أكثر وأكبر مما تقدر على هضمه . .

قلت : جلالة الشاه ، ما الذي جعلك هكذا عصبيا جدا فاتخذت هذا القرار وخرجت من بلادك دون أن ترتب البيت أو حتى دون أن تنظر وراءك . .

قال : عندي نظرية . . وهي أن الملكية الوراثية شيء صعب جدا . . فكل قرار أتخذه سوف يقع فيه ابني بعد ذلك . . ولذلك قررت ألا أريق الدماء حتى لا يحاسب ابني عليها ، في نظام الملكية الوراثية من الضروري أن تفكر في الذي سوف يجيء من بعدك . . وإذا كان الذي سيجيء هو ابنك . كان الموقف قاسيا صعبا . .

قلت : جلالة الشاه هل عندما خرجت من إيران كنت تشعر أن هذه هي نهاية الملكية ؟ . .

أجاب : آه . . لا أعرف . . كل الناس كانوا يقولون في إن من الأفضل أن أقوم بإجازة . . شهرا أو شهرين ولكن السبب هو الجنرال الأمريكي هاوزر . . الذي جاء قبل خروجي . . ولم يشأ أن يتصل في كما هي العادة . . وقد أعد كل شيء ليدفعني إلى الخروج . . فلولا هذا الرجل بالذات ما كان قد حدث شيء .

قلت : فهل اخطأت أمريكا في الحساب لأن الموقف بعد ذلك قد انقلب ضدها ؟

قال : دعنا ننتظر . . سوف نرى النتائج . . وسوف نرى ماذا أعد الأمريكان وماذا تركوا . وماذا سوف يأخذ الروس . . ثم ما الذي يبقى للشعب الإيراني باسم الإسلام الكاذب . . أو باسم الادعاء على الإسلام .

■ ■ ■

وتركت فنجان الشاي الذي نهيى جلالة الشاه إلى أنني قد شربته دون أن أضع فيه بعض السكر . . ولم أتعمد أن يكون لذلك أي معنى أو علاقة بهذا الحوار الحزين . . ونهضت . . وامتدت يد الشاه . . يد الرجل الذي سقط عنه التاجان : تاج الملك ، وتاج الصحة .

. وأمام الباب وجدت اثنين من بناته قد ركبتا حصانا : طفولة وحيوية وبراءة ولا تدريان ماذا حدث . . فهما على كل حال تلعبان . . وتلتفان القبلات من الأقارب يروحون ويجيئون . . فمن المقدر لها أن تعيشا في عالم غريب . . بعيدا عن إيران التي وضعت على رأس الشاه أكبر التيجان الباهرة ، ثم استعاضت عنه بأكبر العمائم السوداء . .

وعندما هبطت السلالم الطويلة العريضة كانت شمس يوم الأحد ١٥ مايو سنة ١٩٨٠ . . قد غربت ودفنت نفسها وراء سحب كثيفة . . وفهمت المعنى الذي قصدته الشمس . □